

كلمة رئيس الجامعة الأنطونية الأب ميشال جليخ  
في حفل تكريم الملحن الأستاذ جوزف خليفه  
١٧ أيار ٢٠١٨

---

أصحاب السيادة،  
قدس الرئيس الإقليمي لرهبانية الآباء الكرمليين،  
الآباء والإخوة،  
أيها الحفل الكريم،

يَطِيبُ لِي وَيُسْرِفُنِي أَنْ أَشَارِكَ فِي هَذَا الْحَفْلِ التَّكْرِيمِيِّ الْمُسْتَحَقِّ وَالْمُحَبَّبِ عَلَى قَلْبِنَا جَمِيعًا وَالَّذِي نُكْرِمُ فِيهِ فَنَانًا مُمَيِّزًا، وَمَلْحَنًا أَصِيلًا، وَإِنْسَانًا مُنَاضِلًا.

سَتَتَسَاءَلُونَ مِنْ دُونِ شَكِّ أَيْنَ النَّضَالُ فِي جُوزَفِ خَلِيفَةَ وَهُوَ الْمَوْلُفُ الَّذِي لَطَمًا جَلَسَ خَلْفَ الْبِيَانُو يُؤَالِفُهُ، يُخَاوِبُهُ، يَسْتَمِعُ إِلَى أَوْتَارِهِ تُطَلِقُ الْأَلْحَانَ الدَّفِينَةَ فِي رُوحِهِ. أُوَكِّدُ وَأَقُولُ أَنَّ أَوَّلَ مَا لَفَتَنِي فِي جُوزَفِ هُوَ نِضَالُهُ. تَعُودُ بِي الذَّاكِرَةُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، يَوْمَ رَافَقْتُهُ مَعَ جُومَانَا مِنْ رُومَا إِلَى دَبْرِ الْقَدِيدَةِ رِيثًا فِي كَاشَا وَفَتَحَ لِي قَلْبَهُ خِلَالَ الطَّرِيقِ يُخْبِرُنِي عَنِ بَدَايَةِ وَعَيْهِ عَلَى الْحَيَاةِ وَمَعْرِفَتِهِ بِأَسْرَارِهَا يَوْمَ عَاشَ فِي طَالِيَّةِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَاخْتَبَرَ مَعَ الْأَسْفِ الْوَجْهَ الْآخَرَ لِلْحَيَاةِ الرَّهْبَانِيَّةِ بَدَلًا وَجْهًا مُشْرِقًا، وَكَيْفَ أَنَّهُ آثَرَ الصَّمْتِ مُتَعَالِيًا عَنِ الْجُرُوحِ وَالْإِسَاءَاتِ وَالْإِهَانَاتِ. مَا صَدَمَنِي هُوَ كَمِيَّةُ الْأَلَمِ الَّذِي لَمَّا يَكُنْ يَحْمِلُهُ بَعْدَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ وَتَفَاصِيلِ أَحْدَاثِ الْمَاضِي الَّتِي كَانَتْ مَا تَزَالُ مُخْتَبِتَةً فِي ذَاكِرَتِهِ.

رُوي عَلَيَّ أَخْبَارَهُ بِأَسْفٍ وَلَكِنْ مِنْ دُونِ حَفْدٍ، بِحَسْرَةٍ وَلَكِنْ مِنْ دُونِ عَدَاةٍ. فَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهَذَا الْكَمِّ مِنَ الْأَسَى وَيُطَلِقَ اللَّحْنَ تِلْوًا الْآخَرَ وَلَمْ أَجِدْ الْجَوَابَ سِوَى فِي نِضَالِهِ الْمُسْتَمِرِّ عَبْرَ السِّنِينَ لِيَرْبِحَ نَفْسَهُ وَعَائِلَتَهُ وَمُحِبِّهِ وَلِيَرْبِحَ خُصُوصًا الْحَيَاةَ، وَقَدْ رَبِحَهَا.

أَنَا ابْنُ الْحَيَاةِ الرَّهْبَانِيَّةِ مُذْ كَانَ عُمْرِي أَحَدَ عَشَرَ عَامًا: أَشْكُرُ اللَّهَ أَيُّ مَا تَشَارَكْتُ الْخَبْرَةَ ذَاتَهَا إِنَّمَا أَعْرِفُ مَعْنَى أَنْ يَشْعَرَ وَكَدَّ بِنَفْسِهِ مَاسُورًا كَطِيرٍ فِي قَفْصِ تَحِيْطُهُ أَسْوَارَ شَاهِقَةٍ وَمَسْؤُولُونَ مُتَعَنِّتِينَ وَنِظَامَ مَكْبَلٍ وَمُؤَسَّسَةَ عِمْلَاقَةٍ. أَقْدَرُ فِي جُوزَفِ تَمَسُّكَهُ بِإِيْمَانِهِ وَتَعَلُّقَهُ بِيَسُوعَ الَّذِي بَقِيَ وَجْهَهُ نَضْرًا فِي كِيَانِهِ، وَصُورَتَهُ نَقِيَّةً لَا تَشُوبُهَا شَائِبَةٌ. لَمْ يَحْفَدُ، لَمْ يَهَاجِمِ، لَمْ يِيَّاسِ، لَمْ يَنْمِ رُوحَ الضَّغِينَةِ، رِبِحَ نَفْسَهُ وَبَقِيَ مُتَصَالِحًا مَعَهَا. نِضَالُهُ فِي أَنَّهُ حَافِظٌ عَلَى رُوحِهِ وَبِرَاءَتِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الظُّرُوفِ، وَصَمَدٌ فِي وَجْهِ رِيَاكِ الزَّيْفِ وَالْبُهْتَانِ وَالضَّلَالِ. إِنَّهَا الطَّبِيبَةُ وَالْبِرَاءَةُ الَّتِي دَخَلَ بِهَا الدَّيْرَ، وَالْأَهْمُ، أَنَّهُ خَرَجَ بِهَا مِنْهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَلَوَّتْ بِمَعْجَنِ الْكِبَارِ، فَانْعَكَسَتْ أَلْحَانًا وَمُوسِيقَى وَجَمَالِيَّاتٍ. نِضَالُهُ مِنْ طِينَةِ نِضَالِ رَفَقَا وَبَادَرِي بِيُو وَتَرِيْزِيَا الطِّفْلِ يَسُوعَ وَتَرِيْزِيَا الْأَفِيلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَقُولُ: "لَا تَدْعُ شَيْئًا يُلْفُكُكَ، لَا تَدْعُ شَيْئًا يُخِيفُكَ، كُلُّ شَيْءٍ زَائِلٌ، وَحَدَهُ اللَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ. مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ لَا يَحْتَاجُ شَيْئًا".

لِنَعُدْ إِلَى قَلْبِ حَدَثِ الْيَوْمِ وَلِنَرِصُدْ جُوزَفَ فِي خَبْرَتِهِ الْمُوسِيقِيَّةِ. لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَمُرَّ مَرُورَ الْكِرَامِ عَلَى كَلِمَاتِهِ أَوَّلًا الَّتِي يَنْتَقِيهَا قَبْلَ أَلْحَانِهِ. لَا يُسَاوِمُ عَلَى الْكَلِمَةِ، لَا يُفَاوِضُ عَلَى الْمَعْنَى، لَا يَتَسَاهَلُ بِالْمُضْمُونِ. لَا يَقْبَلُ بِأَقْلٍ مِنْ هَنْزِي

زغيب وسهيل مطر والأب ميشال عبود والأب روفيل مطر والأب يوسف مؤنس وفادي الراعي وجورج عبدالله وغيرهم من الكُتَّابِ الْمُتَمَرِّسِينَ البارعين، هذا بالإضافة إلى صلوات الليتورجيات المارونية واللاتينية والكتاب المقدس الذي لما يَزَلْ يَسْتَقِي مِنْ خَيْرَاتِهِ وَيَسْتَوْحِي مِنْ كُنُوزِهِ. ليست المسألة بالنسبة لجوزف مسألة لحن أو شهرة أو انتشار أو علاقة مع هذا الفنان وتلك الفنانة، كلا! فجوزف يَعْرِفُ تمامًا ماذا يريد: بالنسبة إليه إنها قضية رسالة، قضية هويّة، قضية حياة، قضية رجاء، قضية انتماء إلى وطنٍ وجبلٍ وإنجيلٍ ومسيحٍ وشعبٍ وأحبة.

أما في ما يخص أَلْحَانَهُ، فيذكرني، ولو من بعيد، بـ Giuseppe Verdi الذي حاولوا أن يُقَارِنُوهُ بِالْعِمْلَاقِ Richard Wagner وعمق موسيقاه والتأليف الموسيقي الدسم والقصص المتولوجية التي كان يتبنّاها هذا الأخير، مُلَمَّحِينَ إلى الفرق الشاسع موسيقياً بين هذا وذاك، إلا أن أَلْحَانَ Verdi وأوبراه عمّت المعمورة من ميلانو إلى روما وفينيسيا وفلورنسا وباريس وفيينا ولندن وسان بترسبرغ والقاهرة ونيويورك، ولم يَسَلَمْ دَارٌ أوبراً في العالم إلا وكان يَفْتَتِحُ عامه الموسيقي بموسيقاه، Verdi قَابِعٌ فِي صَيغَتِهِ رونكولي (Roncole) التي لم يفضل عليها مكاناً آخر في العالم.

أهم ما في الموسيقى أنها تَدْوُقُ، لَذَّةٌ، مُتَعَةٌ... وجوزف عَرَفَ كَيْفَ يَبْرَعُ فِي جعل المُسْتَمِعِ يَتَدَوَّقُ ويتلذذ ويستمتع ويردد أَلْحَانَهُ فِي الأفراح والأحزان. هكذا هو الروح، روح الله، الذي يَهْبُ حَيْثُ يَشَاءُ، وَأَيْنَمَا يَشَاءُ، فِي مَنْ يَشَاءُ. إِنَّهُ رُوحُ الْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ. إِنَّهُ الدِّينَامِيَّةُ التي تُنْعِشُ حَيَاةَ الكَنِيسَةِ ويُعْطِيهَا بَرِيقَهَا وَيُضْفِي عَلَيْهَا رَوْنَقَهُ. يُكِنُّكَ أَنْ تَسْمَعَ صَوْتَهُ، وَأُضِيفُ أَلْحَانَهُ، وَلَكِنَّكَ لَا يُكِنُّكَ أَنْ تَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي وَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ (يو ٨ / ٣). إِنَّ الرُّوحَ يَقْعَلُ وَيَفَاجِئُ؛ وَقَدْ فَاجَأْنَا فَعَلًا بجوزف الذي استقى مِنَ الْيُنْبُوعِ الْحَيِّ فَأَغْنَى الكَنِيسَةَ بِأَلْحَانِهِ وانتشرت أينما تاق مؤمنٌ إلى التضرع ومَى الحنين بالمغترب إلى الحُبِّ الأول.

بحرٌ وجبالٌ شمسٌ وسماءٌ، هواءٌ عليلٌ، لحنٌ وشفاءٌ، وقلبٌ جميلٌ، حُبٌ ولقاءٌ، أهلاً ورفاقاً... شكراً جوزف على هذه الصورة من لبنان التي تحفرها في عقولنا وفي قلوبنا كل يوم وفي كل مناسبة كمن يحفر الجبل بالإبرة. نعتز بك نحن، نعتز بك لبنان، نعتز بك الكنيسة ونفخر بك إرثاً وطنياً ومعلماً ثقافياً.

شكراً للرهبنة الكرملية على هذا التكريم الذي يُعَبِّرُ عَن تَكْرِيمِ الكَنِيسَةِ كُلِّهَا والرَّهْبَانِيَّةِ الأنطونية أيضاً وسائر الرهبانيات، وخصوصاً عن محبة الناس الطيبين وأنقياء القلوب والمساكين بالروح وكل أولئك الذين لهم ملكوت السموات. وشكراً